الباب السابع

البشرية والرسالة

بشرية الجنس وسمو النفس :

أما أن الرسول صلى الله عليه وسلم بشر مثلنا فذلك أمر مسلم به لأنه واقع الأمر الذى لمسناه ونطق به كتاب الله . لكنّ بشريته صلى الله عليه وسلم إنما هى من حيث النوع وليست من ناحية المسلك الذى يتصوره خطأ بعض الكتاب من المسلمين وبخاصة فى زماننا هذا ، حيث يضلّون سواء السبيل إما جهلا بمقام الرسالة ، أوعمداً ليقال إنهم يبحثون بحثًا حرًّا مجرداً عن التقليد ، لينالوا شهرة زائفة يبتغون بها عرَض الحياة الدنيا ، ويخسرون بها أنفسهم وأهليهم يوم القيامة .

إن المتدبر لآيات القرآن الكريم يرى أن الرسل الكرام يختارهم الله تعالى على علم ، ويصطنعهم لنفسه ، ويجتبيهم لحمل عبء الرسالة الكبير ، فليتدبر القارئ العزيز مثلا قوله تعالى فى سورة الأنعام : ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ ؛ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عند اللهِ وعذابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ . قال الإمام البيضاوى فى تفسيره لهذه الآية :

« إن أبا جهل قال : زاحمنا بنى عبد مناف فى الشرف حتى إذا صرنا كفرسَىْ رِهان قالوا منّا نبىٌّ يُوحى إليه ،والله لانرضى به إلاّ أن يأتينا وحىٌ كما يأتيه، فنزلت (الله أعلم حيث يجعل رسالته) فرد الله تعالى عليهم بأن النبوة ليست بالنسب والمال، وإنما هى بفضائل نفسانية يخص الله سبحانه وتعالى بها من

يشاء من عباده ، فيجتبي لرسالاته مَنْ عَلِمَ أنه يصلح لها، وهو أعلم بالمكان الذى يضعها فيه » .

رعاية الله :

إن رسولنا صلى الله عليه وسلم بشر ، ولكن عناية الله الخاصة ترعاه وتحوطه فى تصرفاته مصداقًا لقوله تعالى : (فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) ، وإذا أردت أن تعرف على سبيل المثال كيف كانت تلك العناية الربانية تحوطه فتدبّر قوله تعالى فى سورة النساء : (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً ۝ وَاسْتَغْفِرِ اللهَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً) . ثم انتقل إلى قوله تعالى فى السورة ذاتها : (وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَالَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً) .

فقوله تعالى :(بِمَا أَرَاكَ اللهُ) يفيد أنه صلى الله عليه وسلم مؤيد فى أحكامه بين الناس بوحى ونص ، أو برأى يجرى على نهج الوحى ، فرأيه دائماً صائب ، والعصمة مكفولة له فيما يراه ، لأنه يراه بعون الله وإرشاده ، وهو بذلك يغاير المجتهدين الآخرين الذين يجتهدون ما وسعهم التفكير ، ولا يقطعون بأنَّ ما وصلوا إليه هو الصواب الحتم ، بل يقولون ما قاله أميرُ المؤمنين عمر فى اجتهاده : فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأً فمن عمر .

أما قوله تعالى : (وَاسْتَغْفِرِ اللهَ) ، فقال ابن عطية إن استغفاره صلى الله عليه وسلم ليس من ذنب صدر منه ، وَإنمَا يستغفر للمذنبين من أمته والمتخاصمين أمامه بالباطل (تفسير الإمام القرطبى) . والذى يؤيد ما يقول

به ابن عطية هو قول الله تعالى : (وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحمَتُهُ لَهَمَّت طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وما يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ) . فوقاه الله تعالى من تضليلهم الذى يعود ضرره عليهم حيث أرادوا أن يلبسوا الحق بالباطل فى التقاضى أمامه صلى الله عليه وسلم. وما أروع تبرئة الله له من الذنب بقوله الكريم : (وما يَضُرونَك من شيءٍ) وما أدق وأرق الصورة التى جلَّاها الله تعالى لفضله عليه بقوله الكريم : (وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً) .

وتدبر كيف شملته الحماية الربانية من الكفار حين أرادوا أن يشترطوا عليه شروطاً حتى يتابعوه ، فوقاه الله من مكرهم ، فقال تعالى فى سورة الإسراء : (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۞ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۞ إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا) . وظاهر أن تثبيت الله له حال دون الركون إليهم ، فلم يقع منه شىء صلى الله عليه وسلم ، وهو ما يوضح أن الله تعالى لا يتركه لنفسه البشرية كغيره من المؤمنين ، بل يتولاه بالرعاية والتوفيق فى كل شئونه .

ثم انظر كيف يعلمه ربّه أن يردَّ الفضلَ إلى ربه فيما يؤيده به من الآيات ، لأنه بشر لا يملك لنفسه شيئًا ، والله هو الفعّال لما يشاءُ ، فما شاءَ الله كان ، وما لم يشأْ لم يكن ، فيقول تعالى فى سورة الإسراء : (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۞ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً ۞ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۞ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتَىَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۞ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ

مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِى السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا) .

ثم انظر كيف يعلمه مرة أخرى التبرّى مِنْ حوله الشخصىّ ، ورد الأمر إلى الله تعالى الذى إليه يُرجع الأمرُ كلّه فيقول تعالى فى سورة الأعراف : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عندَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعاً وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ الله وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَا سْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) .

إن بعض الكتاب فى وقتنا الحاضر ينظرون إلى مثل هذه الآيات من طرف البشرية الخالص ، ولا ينظرون إلى عصمة الرسالة بالعناية للربانية والتوفيق الإلهى ، فإذا استند غيرهم فى موقف من المواقف إلى عصمة الرسالة ، ردّدُوا آيات البشرية ليتجاوزوا بها عن العصمة ، ولو أنهم أنصفوا الحق وأنصفوا أنفسهم لما أمسكوا بطرف أريد به رد الأمر فى القضاء إلى الله تعالى فى معرض التوحيد ، وتركوا ما قضاه الله من تعليم الرسول صلى الله عليه وسلم ما جهل بلا مُعَلِّمٍ من البشر ، ومن توفيق الله الذى يحالفه فى تصرفاته فى الرضا والغضب والعسر واليسر ، فتبدو تصرفاتُه مثالية فى ثوب الحق الذى لايشوبه باطل ، والعدل الذى لايعتوره حيف ، والنزاهة التى تقتحم نزعات البشرية الطبيعية .

أعراض البشرية الجائزة :

ومما وصفه به إمامنا علىّ بن أبى طالب كما جاء فى تاريخ الطبرى . . . . « يضحك أحيانًا حتى تبدو نواجذه ، فإذا غضب لم يخنه حلمه بل ينفر عرق بين حاجبيه السابغين المتصلين من أثر الغضب » .

أقول ذلك ولا أجهل ما يجوز على سادتنا الأنبياء فى بشريتهم من عوارض المرض والفرح والحزن والغضب والجوع والعطش إلخ ، ولكنهم فى كل تلك الأعراض التى تجوز عليهم كسائر البشر تظل مواجيدهم فى ساحة القدس الأطهر الذى تسكن إليه وتتعلق به أرواحهم بما آتاهم الله من فضله ، وذلك ما يميزهم فى بشريتهم عن غيرهم من المؤمنين ، ويبين ذلك واضحاً من قوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم فى سورة المؤمنون :

(وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ) . فلا تلابسه بحال ما همزاتُ الشياطين ولا وساوسهم فى أى حال من أحواله البشرية صلى الله عليه وسلم ، لأنه يعوذ من همزاتهم بربّه ، فيستجيب له ويعيذه منهم ، وأنّى لغيره ذلك وهو صلى الله عليه وسلم يقول : « إنَّ الشيطانَ يجرى من ابن آدم مجرى الدم فى العروق » ، وقد جاء فى السنة الشريفة أن الله تعالى أعانه على شيطانه فأسلم .

انظر إليه صلى الله عليه وسلم فى تأثره البشرى وفى غضبه لله من الكفار أعدائه ، وانظر كيف عطف الله عليه وقدم النصح إليه علاجاً لضيقه وتقرباً إلى ربه ، وذلك فى قوله تعالى فى سورة الحجر : (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) . وقد أهلك الله المستهزئين وكفاه شرهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما حَزَبَهُ أمرٌ واشتد به كرب قام إلى الصلاة مُسبِّحاً ربه فَنَفَّسَ الله عنه شدته وفرّج كربته . وفى الصلاة صلة بالله واستراح به عز وجل .

وبينما صوَّر الله فى الآيات السابقة ضيق صدره البَشَرى بالمستهزئين ، صَوّر عطفه الأبوىّ وفضله النبوى بأبنائه المؤمنين فقال تعالى فى سورة آل عمران : (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ

لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) .

وأنت ترى مما تقدم أنه صلى الله عليه وسلم كان محاطًا برعاية ربانية فى الغضب والرضا مع أعدائه وأوليائه ، فوقاه الله كيدَ أعدائه وصرفهم عنه ، وأعطاه الخلقَ الكريم الذى وسع به أبناءه المؤمنين فالتفّوا حوله .

الإنصاف فى البحث :

فإنصاف الرسول صلى الله عليه فى بشريته لا يتأتّى إلّا إذا نظر إليه الباحث بعينين ، لا بعين واحدة ، ولتفهَم ذلك جليًّا تَدَبَّرْ قولَه تعالى فى سورة القصص : (إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَهوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) . ويقول الإمام البيضاوى فى تفسيره : «والجمهور على أن الآية نزلت فى أبى طالب فإنه لما احتضر جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا عمّ قل : لا إله إلّا الله كلمة أحاج لك بها عند الله ، قال : يا ابن أخى قد علمتُ أنّك لصادق ولكن أكره أن يُقال خُدِعَ عند الموت . فإذا أنت نظرت بعين واحدة إلى تلك الآية قلت إنه لا أثر للرسول صلى الله عليه وسلم فى اهتداء الناس إلى ربهم . ولكنك إذا نظرتَ بالعين الأخرى إلى قوله تعالى فى سورة الشورى : (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) . أدركت أنه صلى الله عليه وسلم يهدى إلى الصراط المستقيم من أراد الله هدايته . ولا تعارض بين الآيتين ، فالآية الأولى تتكلم فى معرض التوحيد ناطقة بأن الله لا يشاركه فى سلطانه أحد ولو كان رسولا نبيًّا . والآية الثانية تتكلم فى معرض الأسباب . ناطقة بأن الله ربط الأسباب بالمسببات . لتأتى ثمرة الارتباط لصاحبها بإذن

مسبب الأسباب ، فَيَسْلَم على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم من شاء الله هدايته ، ولذلك كان أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه يحض على السعى فى طلب الرزق من أسبابه ويقول : « لا يقعد أحدُكم عن طلب الرزق وهو يقول : اللهم ارزقنى ، وقد علم أن السماء لا تُمطر ذهبًا ولا فضة » . واعتقاد المؤمن أن الرزق بيد الله وحده لا يتنافى مع السعى إلى الرزق من أبوابه أخذًا بالأسباب التى أقامها سبحانه وتعالى بحكمته .

وإذا نظر الباحث بعين واحدة إلى قوله تعالى فى سورة « المنافقون » : (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ) . فإنه يظن أن الرسول صلى الله عليه وسلم صدَّق المنافقين فى شهادتهم ، ولكن الباحث لو نظر بعينه الأخرى إلى بقية الآية حيث قال تعالى : (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) فإنه يرى أن الرسول صلى الله عليه وسلم وقف من المنافقين حيث أوقفه الله ، إذ كشف له عن كذب بواطنهم التى تخفى على البشرية ولا تخفى على الله تعالى . ولعلك تلحظ معى فى الآية الكريمة مكانة الرسول عند ربه ، فقد جعل الله تعالى الاعتراف برسالته ركناً من أركان الإيمان ، فمن لم يوقن برسالته عَدَّهُ الله منافقًا ولو أقر بوحدانية الله سبحانه وتعالى .

إن القرآن الكريم أظهر الرسول صلى الله عليه وسلم فى ثَوْبِهِ البشرى مجردًا من الأُلوهية ليصحح للناس عقيدة التوحيد الخالص ، ولكنه لم ينزل ببشرية الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بشرية عوام المؤمنين أو خواصِّهم ، لأن الرسالة وهب ولا تتأتى بكسب . ولذلك نهى الله أصحابه أن ينادوه باسمه كما ينادى بعضهم بعضًا ، أو يقدموا رأياً على رأيه ، أو يرفعوا أصواتهم فى حضرته ، فإن هم فعلوا ذلك فقد تعرضوا لأن تحبطَ أعمالهم كما حبطت أعمال أهل الكفر ، قال تعالى فى سورة البقرة : (وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ

فى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولٰئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ). والمراد بها الأعمال النافعة .

كما أمرهم أن يتحاكموا إليه فيما شجر بينهم وأن يرضوا بحكمه ، فإن لم يرضوا بحكمه خرجوا عن الإيمان ، قال تعالى فى سورة النساء : (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) . وقد قال الإمام أحمد بن حنبل من رواية الفضل بن زياد : « نظرت فى المصحف فوجدت طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فى ثلاثة وثلاثين موضعاً ، ثم جعل يتلو من سورة النور : (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَاب أَلِيمٌ) . وجعل يكررها ويقول الفتنة الشرك ، لعله إذا رَدَّ بعض قوله صلى الله عليه وسلم أن يقع فى قلبه شىء من الزيغ فيهلك وجعل يتلو الآية : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يُحَكِّموك فيما شجر بينهم . . .) ؟

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر ، خضع لقضاء الله كما يخضع البشر فى السراء والضراء ، ولكنه كان صابرًا فى البلاء ، وشاكرًا فى السَّراء إلى الحد الذى لا يبلغه غيره من البشر ، لأن صبره وشكره كانا بالله ولله ، فقد قال تعالى فى سورة النحل : (وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ) . وقال تعالى فى سورة الزمر : (بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ) . وسترى بعد قليل كيف كان الله يتولاه فى جميع شئونه الخاصة مع أزواجه وهى شئون بشرية وشخصية ، فقد نزلت براءة السيدة عائشة بالقرآن الكريم من السماء ، وقد أرشد الله نساءه الشريفات بخطاب ربانى مباشر فى كتابه الكريم فحلاّ هن بأكرم السلوك والآداب ، وفوّض له صلى الله عليه وسلم فى إرجائهن أو عشرتهن ، كما أذن له فى زواج الهبة إن وهبته نفسها إحدى المؤمنات ، وفى أن يجمع فى بيته أكثر من أربع نسوة ، وفى كل ذلك إعزاز وتوقير للرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه

مرفوع القدر بإرادة الله فى رسالته وفى بشريته عن سائر البشر . ومع تفويض الله له فى عشرة أزواجه أو تركهن ، راعى بمكارمه صلى الله عليه وسلم القَسْمَ بينهن، إيثاراً للعدل من نفسه ، فآثر الأحسن على الحسن الذى فوضه الله فيه ، وليس ذلك من طباعنا البشرية وإنما هى طباع الرسالة ، ولا تستطيع أن تجرّده من طباع الرسالة حتى فيما هُوَ مِنْ طباع البشر ، بل هو دائمًا فى المسالك الأقوم بالاستعداد الذى هيأه الله به للرسالة والذى يتعدى فى سموه مألوف البشر فى العادة . ألست ترى أنه حاسب نفسه على ميله القلبى للسيدة عائشة ولكنه رد الأمر فى حبها لله حين قال صلى الله عليه وسلم : « اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » ، فلو استطاع أن يُسَوّىَ بينهن فى المحبة لفعل ولكن القلوب بيد الله تعالى ، ولم يكن ذلك عن هوى نفسى مما يصاحبنا عادة ، ولست أطلب من المؤمنين أن يجردوه من نزعات البشر فى حبه القلبى أو فى عشرته للنساء ، وإنما أطلب منهم ألا يقيسوه بأحوالنا نحن فى اتباع هوى نفوسنا الجامح الذى يخرجنا عن سواء السبيل .

الفتح المبين والذنب المغفور :

ولشيخ العارفين سيدى محيي الدين بن عربى كلام نفيس فى معنى قوله تعالى فى سورة الفتح : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝ لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝ وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا) .فقد قال فى الباب ٣٣٩ من كتاب « الفتوحات المكيّة » :

« هو فتوح المكاشفة بالحق وفتوح الحلاوة فى الباطن وفتوح العبارة ، ولهذا الفتوح كان القرآن مُعْجزًا ، فما أعطى أحد فتوح العبارة على كمال ما أعطيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه قال : (لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) أى مُعيناً .

« فقال تعالى له صلى الله عليه وسلم إنا فتحنالك فى الثلاثة الأنواع من الفتوح ، فتحًا أكّده بالمصدر « مبينًا » أى ظاهراً ، يعرفه كل من رآه بما تجلى وما حواه ، ففتوح الحلاوة ثابت له ذَوْقًا ، وفتوح العبارة ثابت للعرب بالعجز عن المعارضة ، وفتوح المكاشفة ثابت بما أشهده ليلة إسرائه صلى الله عليه وسلم من الآيات » (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك) . فيسترك عما يستحقه صاحب الذنب من العتب والمؤاخذة ، (وما تأخر) فيسترك عن عين الذنب حتى لايجدك فيقوم بك ، فأعلمنا بالمغفرة فى الذنب المتأخر أنه صلى الله عليه وسلم معصوم بلا شك ، ويؤيد عصمته أن جعله الله أسوة يتأسى به ، فلو لم يقمه الله فى مقام العصمة ، للزمنا التأسى به فيما يقع منه من الذنوب ، ألا ترى أنه فيما أبيح له خاصة نبّه الله إليه ، كزواج الهبة ، فإنه خالص له . وهو حرام علينا .

« (ويهديك صراطًا مستقيمًا) ، هو صراط ربه الذى هو عليه كما قال هودعليه السلام : (إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) . والشرائع كلها أنوار ، وشرعه صلى الله عليه وسلم بين هذه الأنوار كنور الشمس بين أنوار الكواكب ، فإذا طهرت الشمس خَفِيَتْ أنوار الكواكب واندرجت أنوارها فى نور الشمس . . . . ولهذا ألزمنا فى شرعنا العام أن نؤمن بجميع الرسل وجميع شرائعهم أنها حق » .

وجاء فى حاشية الجمل على تفسير الجلالين ما يؤيد سيدى محيى الدين بن عربى ، فقد جاء فى تلك الحاشية : وقيل معنى الغفران الإحالة بينه وبين الذنوب ، فلا يصدر منه ذنب لأن الغفران هو الستر ، والستر إما بين العبد والذنب أو بين الذنب وعقوبته . فاللائق به وبسائر الأنبياء الأوّل واللائق بالأمم الثانى ، قاله البرماوى .

وقال بعض المحققين : المغفرة هنا كناية عن العصمة . فمعنى الآية يعصمك الله فيما تقدم من عمرك وفيما تأخر منه . وقال القاضى عياض : المغفرة هنا تنزيه من العيوب .

وقال بعضهم : المغفرة هى على فرض وقوع الذنب ليزداد اطمئنانًا إلى رضوان الله الذى اصطفاه .

وقال بعض المفسرين : إن المقصود بالفتح هو صلح الحديبية الذى كان فى السنة السادسة من الهجرة ، وقال بعضهم : إنه فتح خيبر الذى تم بعد عودتهم من الحديبية وقال آخرون إنه فتح مكة .

وجاء فى الحاشية المذكورة[1] أيضاً : وقال الزهرى : « كان فتح الحديبية أعظم الفتوح وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم جاء إليها فى ألف وأربعمائة ، فلما وقع الصلح مشى الناس بعضهم إلى بعض ، فما مضت السنتان إلا والمسلمون قد جاءوا إلى مكة فى عشرة آلاف ، وقال مجاهد والعوفى : هو فتح خيبر والأول قول الأكثر . وقال الشعبى : هو فتح الحديبية ، لقد أصاب فيها ما لم يصب فى غزوة غيرها غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وبويع بيعة الرضوان ، وأطعموا نخل خيبر ، وبلغ الهدى محله ، وظهرت الروم على فارس ، ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس .

وقال صلى الله عليه وسلم حين نزلت عليه سورة الفتح بين مكة والمدينة : لقد أُنزِلَ علىَّ الليلة سورة هى أحب إلىّ مما طلعت عليه الشمس ثم قرأ : (إنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبيناً . . .) . وفى رواية : « لقد أنزل علىّ آية هى أحب إلى من الدنيا جميعاً ثم قرأ : (إنَّا فتحنا لك فتحاً مبيناً) ، فقال المسلمون هنيئاً مريئاً لك يا رسول الله ، لقد بيّن لك ما يُفْعل بك ، فماذا يُفْعل بنا ؟ فنزلت عليه (لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِين والمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِها الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ فَوْزًا عَظِيمًا) .

العقاد وعلامات الرسالة :

وصدق العلامة العقاد إذ يقول فى كتابه « عبقرية محمد » :

« ومن يكون الرسول إن كان لابد من تعريف وجيز لعلامات الرسالة ؟

---

(١) حاشية الجمل على تفسير الجلالين .

الرسول هو الذى له وازع من نفسه فى الكبير والصغير مما يتعاطاه من معاملة الناس، لأن عمل الرسول الأول أن يقيم للناس وازعًا يأمرهم بالحسنى ،وينهاهم عن القبيح ، ويقرر لهم حدودهم التى لايتخطونها فيما بينهم ، ومن كان هذا عمله الأول فينبغى أن تكون صفته الأولى — بل صفته الكبرى — أن يستغنى عن الوازع ، وأن يغنى الناس عن محاسبته وطلب الحق منه . وهذه هى السليقة الشاملة التى سرت فى خلائق محمد ، وامتزجت بجميع أعماله وأقواله ، فلم يحاسبه أحد قط كما حاسب نفسه فى رعاية حق الصغير والكبير ، وصيانة الحرمات للعاجز والقدير ،

هذه علامة رسالة لا علامة أصدق منها ولا أجدر منها بالقبول ، لأنها علامة من داخل السريرة وليست من خارجها ، قد تلازم أو تفارق من تعروه ، وليس للنوع البشرى مقياس صحيح يقاس به محمد فيعطيه مرتبة دون مرتبة الحب والتبجيل، يعطيه هذه المرتبة مَنْ يدين بالإسلام ومن يدين بغير الإسلام ومن ليس له دين من أديان التنزيل . . .

« فمحمد الرجل فى المقام الأول بين الرجال ، فى المقام الأول بخلقته ، وفى المقام الأول بنيته ، وفى المقام الأول بعمله ، وفى المقام الأول بالقياس إلى المشبهين له فى دعوته . .

« لأن محمداً لم يكن كارهًا لطيبات الدنيا ، ولا حاضًّا لأحد على كراهتها والإعراض عنها . فإذا قنع بما قنع فإنما فعل ذلك ليرتفع بإيمانه عن ظنه هو لا عن ظنون غيره ، كأنه يخشى إذا استوفى حظوظ النعيم الميسرة له ، أن يحسب تلك الحظوظ غرضاً من الأغراض التى نظر إليها حين نظر إلى هداية الناس .

« فليكن الإيمان إذن هو كل غرض وكل عمل وكل جزاء ، وتلك راحة ضميره ، ومن وراء راحة ضميره أن يظفر الناس بجهده كله فى هدايتهم غير منقوص ولا مظنون » .

ويقول رحمه الله فى موضع آخر من ذلك الكتاب :

« ظنوا أن النبى لايحزن . كما ظن قوم أن الشجاع لا يخاف ولا يحب الحياة ، وأن الكريم لا يعرف قيمة المال ،

ولكن القلب الذى لا يعرف قيمة المال لا فضل له فى الكرم ، والقلب الذى

لايخاف لا فضل له فى الشجاعة ، والقلب الذى لايحزن لا فضل له فى الصبر . إنما الفضل فى الحزن والغلبة عليه ، وفى الخوف والسمو عليه ، وفى معرفة المآل والإيثار عليه .

« وفضل النبى فى نبوته وفى أبوته أنه حزن وبكى ، وتلك هى الصلة بينه وبين الإنسان ، وبينه وبين الناس ، وأى نبى تنقطع بينه و بين القلب الإنسانى صلة كهذه الصلة التى تجمع أشتات القلوب .

العارف النابلسى وذنوب الأنبياء :

ويقول سيدى عبد الغنى النابلسى فى كتابه الفتح الربانى :

« إننا نطلق على الأنبياء عليهم السلام جميع ما أطلقه الله عليهم وأطلقوه على أنفسهم وأطلق بعضهم على بعض من العصيان والغى والذنب والفتنة وعدم براءة النفس والوزر إلى غير ذلك ، على المعنى الذى يعلمه الله تعالى وتعلمه أنبياؤه عليهم السلام ، لا على المعنى الذى نعلمه نحن ونفهمه من هذه الألفاظ عند إطلاقها ، فإنا لانفهم إلا ما نحن عليه من الأحوال والأخلاق ونحن غير معصومين وإن أيدنا بالحفظ ، والأنبياء عليهم السلام معصومون ، ونحن لا نعقل كيف ننسب هذه الأشياء إليهم لأننا لسنا فى أطوارهم ، وإنما نعقل كيف تنسب هذه الأشياء إلينا ونحن دون معاملتهم بيقين » . وهو كلام نفيس كما ترى فاحرص على الانتفاع به .

والخلاصة :

وأخيراً أعود وأقول : إنه صلى الله عليه وسلم بشر من حيث الجنس ، وفوق البشر من حيث المسلك ، لأنه قال بحق : « أدَّبنى ربى فأحسن تأديبى » ، كما قال صلوات الله وسلامه عليه : « إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . ومن تتم به مكارم الأخلاق لابد أن يكون كاملا لاتعتريه شائبة من شوائب البشرية الناقصة ، كما يظن أولئك الذين ينظرون إليه فى جنسه ، فيفوتهم النظر إلى كمال نفسه ، فيفوتهم قول الحق جاهلين أو عامدين .